إ ٢٠٠١/٩٠

قداس الميلاد

صباح الثلاثاء ٢٥ كانون الاول ٢٠٠١ ترأس سيادة متروبوليت بيروت وتوابعها المطران الياس عودة قداس الميلاد في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرفية بحضور حشد من المؤمنين. بعد قراءة الفصل الإنجيلي ألقى سيادته العظة التالية:

"المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة.

"ليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا، الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس، وإذ وُجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب، لذلك رفعه الله أيضًا وأعطاه اسمًا فوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومَنْ على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربّ لمجد الله الآب" (فيليبي ٢: ٥-١١).

يسوع المسيح هو معلّمي وربّي، وهو الذي لقنني فلسفة الحب. هذا الذي كان في عليائه، في مجده الأزلي، لم يرتضِ أن يرى خليقته في ألم وتمرمر وعذاب مستمر، فانحدر نازلاً إلى من صوّره منذ القديم على صورته، وشاء أن يمشي ويتخطّر ويعيش مع من يعيش في بؤرة الخطيئة والفساد والرذيلة والظلم ليخلّصه. إلهنا يشاء خليقته أن تكون في الفرح الدائم الأبدي. هو لا يشاء أن يكون وحده لأنه محبة، والمحبة تلد وتبدع وتخلق. الله هذا الذي نعبد، وهو الذي أبدع العالم وخلق الكون، هو مصدر النور والحياة. هذا الإله فاض وما زال يفيض محبة من أجل أن يكون العالم والكون كله في نور وبهاء لا ظلمة فيه. فمن شاء أن يكون نورًا وحياة يلتصق بالله فيستنير وينير، ومن يبتعد عن الله يصبح ظلمة ويشكّل حاجزًا بين النور والناس.

يسوع ابن الله جاء إلينا وحلّ فينا لكي يستطيع الإنسان أن يستعيد الطريق ويعرف الغاية التي منها أتى وإليها يذهب. حلّ فيما بيننا واتخذ طبيعتنا ولبس جسدنا،

وقدّس هذه الطبيعة التي مسّها منذ القديم عندما خلقها بيديه وجعلها منه، قدّسها وجعلها متألّهة بالحرية المنصاعة إلى إرادة الله. لقد أصبح الإنسان مقدَّسًا من جديد، متألّهًا، لأن الله دخل الطبيعة البشرية وجعلها متألهة. أصبح فيها جاعلاً إياها من جديد مصدرًا للقداسة والحياة والنور.

دخل ابن الله تيار الزمن- الذي يحرّكنا وفيه نتحرّك- لينقذ من يكاد يغرق في أمواج هذا الدهر. بتجسّده أراد أن يعيد هذا الإنسان، الذي تهشمت عظامه وتشوّهت صورته، إلى صورته الأولى، إلى صورة الإنسان الحقيقي.

يسوع المسيح هو وحده صورة الله غير المنظور، وهو بهاؤه ورسمه، "كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يوحنا ١: ١-٣)، وقد تجسد لينقذ خليقته من الموت ويعيد تكوينها ويجعلها في الحياة. عندما انفرد الإنسان عن الله وانعزل عن الحياة أصبح في الموت، فتجسد المسيح، اتخذ الإنسان، وبموته أمات الإنسان القديم وأقامه بقيامته إنساناً جديداً، إلى بهاء مجد الله، وأجلسه عن يمين الله الآب. كما بسط يسوع يده إلى بطرس حين كان يغرق، بسط يده لجسد يموت أو هو مهدَّد بالموت، انحدر إليه ومد يده لينتشله من الحالة التي يرزح فيها. الإنسان هو الخروف الضال والمسيح هو وحده الراعي الصالح الذي يقودنا إلى المراعي الخصبة النضرة. لماذا تجسد يسوع؟ لكي يأخذ هذا الخروف الضال ويضعه على منكبيه ويصعد به إلى السماء. لقد أتى يسوع من وطننا الحقيقي حيث كانت صورتنا كصورة يسوع. كل الأوطان مهدَّدة، أما الوطن الذي فيه الرب إله وملك فلا يهدّده كائن. كل البشر، مهما علت بناياتهم ومنجزاتهم، يزولون وتنهار أبنيتهم كما ينهار الكوخ الخشبي بفعل الريح. لا أحد يستطيع أن يبني برجًا بابليًا لا ينهدم. وأنت أيها الإنسان، مهما علوت وانتفخت وكبرت، فأنت خاضع للفناء إن لم يكن الله فيك. أنت ترابي وإلى التراب ترجع.

الإنسانية خسرت صورتها الحقة بسبب الخطيئة، والخطيئة هي ذاك العمل أو الفكر أو القول الذي يجعل من قلوبنا غريبة عن الله ومنفية. وقد تجسد يسوع ليعيدنا إلى حيث كنا، ليعيد ولادتنا من جديد على صورته. "أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم"، أصبحتم مسحاء. كل من اعتمد اتخذ قرارًا أن يصبح إلهاً في المسيح يسوع. كيف يستعيد الإنسان صورته الحقة ؟ عندما ينزل من برج مزيّف

عالٍ إلى تواضع المحبة. عندها تنقشع كل غشاوة عن عينيه ويرى بوضوح. المحبّون يرون. المحب يرى الصغير والكبير، ينتبه إلى كل حركة، يهتم بكل شيء، يحمل بين جوارحه كل هم.

الإنسان المسيحي قلق في كل حين كي لا يضيع أو يضلّ، لكن الله يطمئنه أنه حصل على نعمة تدفعه إلى الأمام. قلق الوصول عند المسيحي مرتبط بطمأنينة الوصول (القديس غريغوريوس النيصصي). الإنسان الذي يسير في درب الرب قلق في كل حين لأنه محاط بالتجارب والأخطار، لكن الله يرافقه في خطواته ويؤكد له الطريق.

اليوم نعيّد لذكرى يسوع، عمانوئيل الذي تفسيره "الله معنا". فمن يؤمن بيسوع الإله المتجسد يعي أن الله واقف عند باب قلبه يقرع ويقول افتح لي لأسكن قلبك وأغيّر حياتك وأجلّيك وأجعلك مضيئًا كالشمس المشعة. الله معنا. الله يبعد عنا كل ما يزعجنا ويسيء إلى الطريق التي نحن عليها، يجعلنا من جديد أبناء، وهذه البنوّة لا تحصل إلا بالإيمان بالابن الحقيقي يسوع المسيح. إن آمنتَ تخلص. إن آمنتَ إيمانًا واعيًا، حقيقيًا، وجوديًا، كيانيًا، صادقًا، تخلص. الله حياة، إن تكلّمتَ معه يَدخلك، يجتاز في مفاصلك، يخترقك الروح ويحرّكك. عليك فقط أن تقول كما قالت العذراء مريم "ها أنذا أمة للرب". المسيح الإله صار عبدًا ليجمع العبيد إلى مجد أبناء الله (فيليبي ٢:٧). لم يستحِ أن يصبح عبدًا، لم يأنف– وهو الإله– أن يصبح مخلوقًا، أي آخذًا جسدًا من مريم العذراء، ليخلّص جنس البشر ويعيده إلى أحضان الآب، ومن يحب يسوع يحب أباه الآب.

اليوم نعيّد لمن انحدر من فوق، من سمو لا يُدرك إلى محدودية ضيقة ضيق المذود. لم يخجل، وهو الإله وألوهته لم تكن مختلسة، أن يخلي نفسه ويتخذ صورة عبد. لم يتخلَّ عن ألوهته لكنه لم يُظهر مجده للناس، مجد وحيد الله، ولم يكشف مجده إلا على الصليب، وعندما رُفع جذب الجميع إليه. فقط عندما يصلب الإنسان خطاياه، عندما يصلب إنسانه القديم يُرفع لأن الصليب المقدّس يرفع الإنسان إلى النقاوة والطهارة وكل ما هو سماوي فيصبح الإنسان سماويًا.

في هذا الجو الميلادي نسأل الله أن يسكب سلامه في قلوبنا وفي أرضنا، وأن يجمع أبناء هذا الوطن إلى واحد في الحق. نسأله أن يسكب هدوءه وسلامه في أرض

فلسطين حيث يُمنع الناس من الذهاب إلى الصلاة. أعداء الصلاة منعوا المصلّين من الصلاة، ولا أقصد شخصًا أو اثنين. جعلوا من أرض السلام أرضًا تبلّلها الدموع وترويها الدماء. جعلوها أرضًا يُستباح فيها قتلُ الأطفال والأمهات والشيوخ ويُسحق الإنسان وكرامته. أين الدول العظمى التي تدافع عن الأخلاق وحقوق الإنسان؟ لقد فُضح كذبها ونفاقها. تُهان إن قُتل طفلٌ من أطفالها وتغض الطرف عن أطفال يُهانون ويُقتلون كل يوم.

أرض فلسطين هي للشعب الذي عاش فيها سنين طوال إلى أن جاء من يطرده من أرضه، والذين اغتصبوا أرض فلسطين ليسوا أبناء هذه الأرض بل جاؤوا من أوروبا وأميركا ومن أطراف العالم لينغّصوا حياة شعب وهناءه. والغريب أن أدمغة العالم تتصاع لهم، وهم يهددون الكون كله ورؤساء الدول يطأطئون الرأس لهم. أليس غريبًا أن يُنصر الجلاّد على الضحية؟ لم يبقَ في هذا العالم ضمير.

صلاتنا أن تنسكب نعمة الله في القلوب والضمائر وأن يحل سلام الله في العالم كله وفي فلسطين وفي لبنان الذي ننشدّ إليه في كل حين ونقطر دمًا ودموعًا على كل نفس تفارق أرضه ونحزن لكل كلام يائس يصدر من فم مواطن. إني أتوجه من هذا المكان المقدس إلى من هو بمثابة أب لهذا الوطن لأقول له انحدر كما انحدر يسوع إلى آلام البشر وهمومهم، وأنت منهم وتتألم كسائر البشر. إنزل واحمِ الصغيرَ من الكبير والمظلومَ من الطاغية. إحمِ الفقيرَ والأرملةَ من جشع الغني، وصاحبَ المصلحة الصغيرة من أصحاب المصالح الكبيرة الذين يَدوسون على دموعه ويرقصون على ألمه. لقد جاءني في من يجيء إليّ جماعة كانت لها حصة في التعاونيات وضاعت. أنا لا أعرف تفاصيل القضية لكنني أعرف كيف يأكل الأغنياء خبز الفقراء. لقد أخبروني أن رؤوس الأموال الكبيرة سُحبت قبل إعلان إفلاس التعاونيات فما أفلس إلاّ الصغار ولم يفلس الكبار. فيا صديقي الحبيب إحمِ صاحب المصلحة الصغيرة من أصحاب المصالح الكبيرة. إحمنا جميعًا من تواطئ النفوس الصغيرة. إحمنا من أصحاب الرشوات الكبيرة التي لا تُرى فيما توضع الرشوات الصغيرة تحت المجهر. نحن لا ندافع عن السرقة والرشوة لكننا نتساءل لماذا يُغَضّ الطرف عن السرقات الكبيرة ولا تُعلن وتُحاكم إلا السرقات الصغيرة.

نشتهي أن نجد بلدنا واحدًا موحّدًا ننعم فيه بالسلام يعمّ كل أبنائــه، والعــدل يطغى على كل حكم. نبتغي العدل رائيًا بعينيه الصافيتين جميع النــاس سواســية، لا يحول دون هذه النظرة الصافية انحيازٌ أو جور.

أيها الأب الرئيس، كما نزل الرب يسوع إلى حالتنا اليائسة المؤلمة، إنزل إلى أولئك الذين غمرتهم ظلمة السجون وظلم النفوس المتوحشة التي لم تعــرف الله فــي قلبها أبدًا. هناك من يحب لبنان كما تحبه أنت لا كما يحبه الذين يتملّقونك ويتملّقــون حب لبنان. ادخل إلى قلبك تجد أن ما أقوله قريب جدًا من الحقيقة.

قوّتك ليست في تشرذم أبنائك. قوّتك في سعة صدرك الذي يجمع كل أبنائــه. الضمير الضمير لا يخضع إلا لشروط الله ووصاياه. نحن نعلم أننا كلنا خطــأة وقــد أخطأنا إلى نفوسنا وإلى الوطن. لكن محبة الأب الحنون لا تسمح بأن يبقــى خطــأة يسرحون ويمرحون فيما يُرمى آخرون في عتمات السجون وكــأنهم فــي عتمــات النسيان. الظاهر الراهن غشاش، اللحظة غشاشة، ولا يبقى الوطن إلا إذا تزينت جباه رجاله بالحق. يبقى لبنان إذا بقي فيه مواطن أو اثنان أو ثلاثة يعرفون الحق والحــق يحرّرهم لكي يحرّروا الوطن. اليوم تُرفع تماثيل وأصنام ستسقط جميعها. الأصــنام ستنهار وستظهر الحقيقة. والحق يظهر في توبة نصوح لا في من داس على الحــق وسار.

أيها الرئيس الحبيب، يقولون عن كل قرار إنه قرار سياسي، وهو يعتمد على اتهامات شائنة. هل نقصد بالقرار السياسي أنه لا إنساني؟ هل يكون القرار السياســي ظالمًا؟ لمَ لا يُعامل الجميع بالتساوي؟ لمَ لا تسري نفس الأحكام على الجميــع؟ لــمَ يُسكَت الشعب بالقرار السياسي؟ هل نعيش كأفراد أم كجماعة، كوحدة نشتاقها في كل حين؟ نحن نريد وطنًا يزدهر فيه القلب والضمير لينتعش الإنسان، والضمير الحــي والقلب الطيب بمثابة الأوكسجين الذي ينعش الإنسان. وكما نقول "القلب الطيب" نقول "الإنسان الطيب" أي الحي، وكأن الإنسان لا يحيا إلا بقلبه.

شعبي ثائرُ القلب جائعٌ إلى الحق الذي لا يسمح بدوس كرامــات النــاس أو بتحريك الموظّفين ونقلهم من أماكنهم كما تُحرّك أحجار الطاولة، أو إبعادهم ورميهم وكأن لا حاجة منهم ولا منفعة.

أيها الرئيس الصديق، شباب الوطن يتحرّق إلى الكلمة المنعتقة من كل قيد. شبابنا يرددون، عندما يسمعون مسؤولاً يتكلّم، قول داود النبي: "يتعلّلون بعلل الخطايا". نحن نجد فلذات أكبادنا وعصارة حياتنا تهجر الوطن وتهاجر وعلينا أن نداوي يأسهم ونمنع هجرتهم.

يا شباب بلدي وشاباته لا تيأسوا. أنتم أرز لبنان. أنتم جبله وثلجه. أنتم السحابة البيضاء التي تخترق سماءه السوداء الملبّدة بالغيوم. أنتم شباب لبنان، بدونكم يصبح عجوزًا مسنًا قريبًا من الموت. أنتم حبنا. أنتم حياتنا. أنتم فرحنا. لا تأبهوا لزبانية الظلم ووحشيتهم. كلما انتفضتم عرفنا أن لبنان باقٍ وكلما صَمَتّم ونمتم يؤدي نومكم إلى الموت. يا شباب بلادي، أنتم حب والديكم وحب كل من يحب لبنان. حفظكم الرب وحفظ لبنان. آمين.

بعد القداس استقبل سيادته في دار المطرانية حشود المهنئين بعيد الميلاد من وزراء ونواب حاليين وسابقين وشخصيات دينية وسياسية ومدنية ومؤمنين أمّوا دار المطرانية لتقديم التهاني.

كذلك تلقى سيادته اتصالات من فخامة رئيس الجمهورية العماد اميل لحود، دولة الرئيس نبيه بري، فخامة الرئيس السابق الياس الهراوي، والرئيسين حسين الحسيني وسليم الحص.